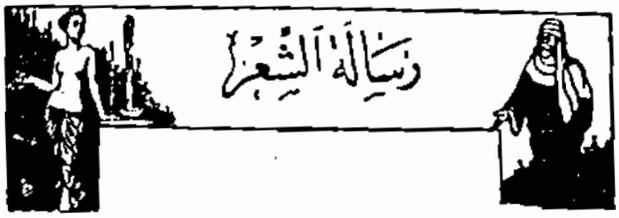

« هواء وعلم »

للاستاذ محمود حسن اسماعيل

« ألقيت فى مهرجان العلم والمعلمين بالجزيرة احتفالا بالدكتور طه حسين بك وزير المعارف »

غناء .. وأشجى منه يا أنت قائله ... وسحر . وأعتى منه ما أنت فاعله
حشدت لك الإلهام من كل مهجة ... ومن كل نور أنت للفن باذله
ومن قمة للفكر أنت بفجرها ... شعاع من الرحمن هلت مشاعله
ومن صيحة للحق، تمضى زئيرها ... كأن يداً للغيب خفت تزامله
ومن أدب حر الأعنة سقته ... إلى الناس ركباً لا تجارى قوافله
مددت لها الأرسان فى كل وجهة ... لمحت بها ليلا ، فطاوت تقاتله
يمر على جدب المقزل حداؤها ... ربيعاً جديداً الخطو ، غنت أصائله
له مذهب فى السير، فالأرض كلها ... زمان وأفق يمتطيه قبائله
ومن فرحة للعلم ... هذا هديرها ... حواليك ضجت بالوفاء سواحله
تنادى لها طير الجزيرة بالهوى ... وأنطق أشواق الرياحين زاجله
وأصغى إليها النيل حتى حسبته ... أخا لوعة تهفو إليك خمائله
وسبح صمت النخل فيها، ولم تكن ... لتعرف فى التسبيح شيئا أناامله
أكاد - ولو لم أصغ - أسمع بظله ... ترانيم طير بالحنين تساجله
فهل هو ممن يعشق الفكر قلبه ... وممن لأهل العلم تنمى سلالته !
ومن كل إيمان ، وكل عقيدة ... وكل خيال طاوعته حيالته
حشدت ربابانى ، وفنى ، وصاحباً ... هوالشعر لم تهدأ بأرض رواحله
وجئتك أبغى طيف سحر ، فإنما ... بيانك يدرى أين تخفيه بابله
يربك هبنى بعض وحى لملنى ... لسحرك أشدو بعض ما أنا حامله
فلا كانت الأوتار إن هز عودها ... هواك، ولم تشج الليالى بلابله..

أتاك بناة العقل ، من عهد آدم ... وهم حوله نبع تثر مناهله
يجىء لهم طفلا ، غريراً مدثرا ... بثوب غرير الوعى ، هيل غلالته
يمد يداً ظمآى ، وأخرى لعلما ... تشير إلى رى بعيد تحاوله
تلقوه سفحاً جاهلا فى مفازة ... بها عهب الإظلام طنت مجاهله
عنيد الدحى، إن خالس النور ليله ... يضىء ، وإن يفجأ سحاه يصاوله
سقوا مهده خطو الرسالات رحمة ... وكدحاً صبوراً لا تنى مماوله
وشقوا ثراه ، فاستحال يبابه ... حقولا ، عليها الدلم صافت سنابله
وخلوا جناها للحياة ، فإنهم ... هداها، وهم فى كل شعب دلائله
فإن شئت بعثاً للبلاد ، فهذه ... بدالله فوق الجهل، هذى جحافله
بنان ، وإيمان ، ولوح ، ووقفة ... وما بعد هذا، كله أنت حاذله ..
أنوك .. فجاء والذى سارق الحجا ... تخرت له أبراجه ومنازله
له منطق النور المبين ، إذا هوى ... على الشك راحت تستجير مقاله
يمزق بالتبيان كل مطلسم ... من الرأى حتى تستبين دخائله
وينفض أسرار النفوس بيانه ... كما لو رواها كل طيف تزاوله
إذا رق فالأسحار لحن بكفه ... وطير الربى نادى رخيم يغازله
وإن مس ظلماً، خلت ناراً وعاصفاً ... وذكرى هشيم فى الفيافى تقابله ..
يسير وحى النيل لحن مقدس ... يهز به سمع الضحى ويطاوله
تطوف على الدنيا خطاه ، كأنها ... لمصر نشيد لا تسكل فواصله
فكم رحلة للغرب طاوت بذكرها ... وغنت بواديها العزيز رسائله
يحب ضنى الأسفار حباً لمجدها ... وتشجيه أشجان السرى وشواغله

رآى العلم مأسور الضياء ، كأنه ... شقى على الأصفاد شدت سلاسله
أقاموه فى سوق تعاوت دروبه ... وصدت أياديه وسدت مداخله
ونادى مناد فوق أعتاب بابه ... بصوت جهير الظلم يحث غوائله :
هنا الألف العصماء . عود يمتح ... من العزة القعساء شيدت حوائله
هنا الباء طير عبقرى يجنح ... على طيفه يبكى من اليأس حابله
هنا « تاء » « كالباء »، كل بدرهم ... ومن ساوم الأسعار لست أعامله
هنا كل حرف فى وعاء يختم ... شحيح الرؤى ، إياك يوماً تسائله
إذا كنت ذا مال فأقدم، وإن تكن ... فقيراً ، فخلم الشمس ما أنت آمله
هنا كل سطر تحت قير ، فإن ترد ... نشوراً، فهات المال تخشع جنادله
هنا سد يأجوج ، هنا العلم . لمة ... تباع وتشرى كالمتاع مراحله ..
وكم من يد جاءت تبكى لقطرة ... فقالت لها بيعى الدموع جداوله
وكم من أب فى الكوخ أقعى شقاؤه ... وناحت عليه فأسه ومناجله
أتى يبتغى ضارعاً متوسلا ... لعل حظوظ العاجزين تنافله
فهب المنادى صائحاً فى عذابهم ... بصوت على الآفاق دوت زلازله
إلى الكوخ عودوا يا بنى الفقر، واقنعوا ... فأولى بكم قطمانه وسوابله !
أساطير عن « دنلوب » تروى وإنها ... لفتك بروح الشعب دقت وسائله
وقيد لجد النيل طال هوانه ... وطالت عليه ناره ومشاكله
خطا نحوه « طه » العظيم مؤزراً ... بشعب من الأغلال ملت كواهله
وكر عليه فارساً ، فى يمينه ... شبا قلم للحق سنت مناصله